سميح القاسم

أُمثّل

وقصائد أخرى

مؤسسة الأسوار - عكا

سميح القاسم

أَلمثّل

وقصائد أُخرى

مؤسسة الأسوار – عكا

منشورات مؤسسة الأسوار - عكا

الطبعة الأولى - ٢٠٠٠

جميع الحقوق محفوظة

الغلاف للفنانة ارينا كركبي

المطبعة العربية الحديثة - القدس - هاتف: ٦٢٧٢٥٦٤-٠٢

قصائد الديوان

خمسون ٥

صولوا وجولوا ١٥

شرف العائلة ٢٤

حنّاء العروس ٢٩

أعيذ الحق ٣٦

توءمان ٤٢

القصيدة الشامية ٤٥

القصيدة اللبنانية ٦٢

القصيدة العُمانية ٧٢

بائية العرب ٨٢

المثل ٩٢

خمســـون...

آلـبـئـرُ بـئـري. وهـذا المـاءُ مـن مَـطَـري
والـشـأنُ شـأنـي. قُـراحـي كـانَ أم كَـدَري
بـئـري. ومـائـي. وطـيـنـي صـائـراً جَـسَـداً
وصـــائـــراً بـلـــداً. بَـدْواً إلــى حَـضَـرِ
هُـنـا ابـتـدأتُ. وشـبَّـتْ نُـطـفـتـي أُسَـراً
أصـــلابُـــهـا أُسَـرٌ. تمـــتــدّ فــي أُسَـرِ

وصعَّدتْ همَّتي. توقاً لهمَّتها

وغوَّرتْ سكّتي فاستنهضَتْ شَجَري

بيتاً فبيتاً غرستُ السفحَ عافيةً

وقلتُ للمرجِ: كُنْ، بالأخضَرِ النَّضِرِ

وقلتُ للريحِ: هُبِّي باللقاحِ كما

يهوى جموحُ الهوى عيداً لمزدَهِرِ

وقلتُ للأرضِ: لوضنَّتْ مواسمُنا

مواسمُ الخيرِ وعدُ الكدْحِ. فانتظري!

هُنا خلَقْتُ هُنا من كلِّ جارحةٍ

من كُلِّ ناضحةٍ. من كلِّ مُعْتَصَرِ

أنا بلادي. بذارُ الحُبِّ حنطتُها

وزيتُ زيتونها مصباحُهُ وَطَرِي

وعُشبُها لُغتي لَو كابرتْ لُغةٌ

ولو خبا قمرٌ. ليمونُها قمَري

وغازَلَتها شعوبُ الأرضِ قاطبةً

لكنَّها آثرتْ عزفي على وَتَري

وللمهادِ مهودٌ. في سلالتِها

جيلٌ يصيحُ بجيلٍ: عُدتُ من سَفَري!

هنا القناديلُ. والليلُ المغيرُ على

منابعِ الضوءِ. غِرّاً ضاقَ بالعِبَرِ

هـا "أُسـامـةَ". وشـمـاً. فـي مـلامـحـهِ

"إبنُ الوليدِ". وبعضُ الوشمِ من "عُمَرِ"

هـنـا قميصُ "صلاح الدين" متَّشحاً

زهورَ "حطّين" في قيلولةِ الظَّفَرِ

وتـذكُرُ الأرضُ كفّاً أنـعـمتْ فكـقتْ

حُبّاً وخصباً. ولم تبخلْ بمُدَّخَرِ

وتـذكُرُ الأرضُ قلباً أدمـنـتْهُ علـى

عُرسٍ على مأتمٍ، في جَنَّةٍ- سَقَرِ

هـنـا المقابرُ. أجدادٌ وصيَّتُهُم

بلوغُ أحفادِهم. أُنثى إلى ذَكَرِ

ونَسْجُ أكفانِهِم ملءَ الردى علماً

للصاعدينَ. سرايا ساعةِ الخَطَرِ

وإنهَّا نكبةٌ حَلَّت على سِنَةٍ

من ساهرينَ. حلالٌ لاسمِهِم سَهَري

ما قدَّروا أنَّ في أثوابهم نَسَماً

يستدرجُ النارَ بين الريحِ والشَّرَرِ

وإنها نكبةٌ من نكبةٍ. رفعتْ

قَدْرَ الضعيفِ على أقدارِ مُقْتَدِرِ

تباطأتْ زمناً. واستعجلتْ زمناً

حتى غدا زمني سَجّادةَ الإبَرِ

واشهرتْ كَفناً. واستبدلتْ كفناً

وسوَّغتْ كفناً من جلدِ مُخْتَضَرِ

وأوغلتْ في خطايا الدمّ. لائمةً

أنّي صرختُ بها: يا نكبةُ اختصري!

لا. لن تمُري على روحي وفي جَسَدي

إلا ليولدَ طفلٌ يقتفي أَثَري

ويوقظُ النارَ من غيبوبةٍ بَهَظَتْ

رمادَ عنقائها بالصمتِ والضَّجَرِ

يا لعنةَ البغي. أعطي البغيَ بُغْيتَهُ

بما اشتهيتِ. ولا تُبقي. ولا تَذَري

مشيئةُ الدم أن يختار كوكبُهُ

مدارَهُ. ومداري في الثرى العَطِرِ

أنا بلادي. وبي منها بدايتُها

ولي نهاياتُها. ورداً على صَدَرِ

أنا بلادي. فجاجُ "النقْب" خاصرتي

و"كرملُ الله" صدري. والمدى بَصَري

وما "الجليلُ" سوى وجهي. فهل شَخَصَتْ

عينٌ تُطالعُهُ. إلا رأتْ صُوَرِي؟

أَنا بلادي، فمنذا مُبْلغٌ خبري

لقومِ لوطٍ، ترى مَن مُبْلغٌ خَبري؟

علــى "سـدومَ" سـديمٌ مـن غـوايـتـهـا

وفـي "عـمـورة" عُـرسُ الـسَّـادرِ الأشـرِ

خـمـسـونَ مـجـزرةٌ. خـمـسـونَ مـقـبـرةٌ

من سـيـرةٍ أُقـحـمـتْ بـالـنـارِ فـي الـسِّـيَـرِ

وقـومُ لـوطٍ سـكـارى خـمـرةٍ عُـصـرتْ

مـن بـؤبـؤيَّ. ومـن قـلـبـي. ومـن ثَـمـري

خـمـسـون حـبـلاً عـلـى عنْقي وفـي رئـتـي

خـمـسـون نـصـلاً فـمـا لـلـمـوت لـم يَـزُرِ؟

خــمــســونَ ســجــنــاً.. ودوريٌّ أُراودُه

يـدنـو ويـنـأى عـلـى شـكٍّ وفـي حَـذَرِ

خمسون دهراً. بلى، في برهةٍ عبرتْ

تُساومُ الموتَ عن أوجاع مُصْطَبِرِ

وتصطفيني بشيراً صوتُهُ دَمُهُ

وحُلْمه قِمَّةُ المنذورُ للسُّوَرِ

يا قومَ لوطٍ. ويا قومي، أقولُ لكمْ

أرى بقلبي، أرى باللمسِ والنَّظَرِ

أرضُ العجائبِ لم تنضبْ عجائبُها

ولاَ تنكَّرَ عَفْوُ الله للبَشَرِ

وتهمسُ القدسُ في قلبي نبوءَتَها

ويُشمِسُ القلبُ.. ميعاداً مع القَدَرِ

ويُشرقُ اللهُ في روحي. ويُشرقُ في
سِتْرِ اليقينِ، يقينٌ غير مُستَتِرِ
بنى المسيحُ على صَخْرٍ كنيستَهُ
ودولتي. أنا أبنيها على حَجَرِ!

(أُلقيت للمرة الأولى في مهرجان صفورية - أيار ١٩٩٨)

صولوا وجولوا

صُولـوا كـمـا شـاء الـضـلالُ وجُـولـوا

حـطـبُ الـجـحـيـمِ الـسّـادرُ الـضـلّـيـلُ

يـا أيـهـا الـضـعـفـاءُ فـي جـبـروتـكـم

كـم ذا أذلَّ الـقـاتـلَ الـمـقـتـولُ

يـا أيـهـا الـفـقـراءُ فـي إثـرائـكـم

كـنـزُ الـوجـود ضـمـائـرٌ وعـقـولُ

وخطاكُمُ قصُرت وطال طريقكم

والظلمُ صكٌّ والجنونُ كفيلُ

ومناحةٌ ليليَّةٌ أحلامُكم

ولدى النهار فظائعٌ وعويلُ

من أي ماضٍ تُقبلون بحاضرٍ

يغتالهُ المستقبلُ المجهولُ

ولأي أفق ترحلون وسخطكم

حمأٌ على أُفْق الحياة يسيلُ

القتلُ كي ترثوا القتيلَ سبيلُكم

تبَّت يدٌ ورثت وتبَّ سبيلُ

مـجـد الـدم المـسـفـوك نـورٌ خـالـدٌ

وسـتـخـلـدون ومـجـدكـم قـابـيـلُ

لا تحسبوا القتلى حصاداً سائباً

دمـعُ الـيـتـيـم حـجـارةٌ سـجّـيـلُ

يـا مـن غـرسـتـم فـي الـقـبـور مـنـازلاً

وعلى الضحايا الرقصُ والتهليلُ

تـبـنـون؟ أحـجـارُ الـبـنـاءِ تـضـجَّرَتْ:

لـلـعـار بـيـتٌ بـالـخـنـا مـأهـولُ

عـجـبـاً لأشـداقٍ تـدِرُّ عـدالـةً

أمـا الأكـفُ فـمـخـلـبٌ مـسـلـولُ

ولَكَمْ بكيتمْ في الورى حريةً

وبلادُنا في ليلكم باستيلُ

والثائر القدّيسُ صار "مخرباً"

في عرفكم والخاتلَ المختولُ

عجباً عجاباً كيف في ناموسكم

يتماثل التحريمُ والتحليلُ

باسم السماءِ تدنّسون سماءنا

وكأنما الفاتومُ جبرائيلُ

وإذا غدا التلمودُ حكماً ناجزاً

ما يفعل القرآنُ والإنجيلُ؟

سُدّوا على الشمس النوافذَ، حسبُكم

هذا الظلامُ السابغُ المسدولُ

وخذوا من الفولاذ عجلاً قاتلاً

صلّوا له، اهتزوا لديه وميلوا

جرحي أبو الوطن الجريحِ وأمُّهُ

ودمي لديه مواسمٌ وفصولُ

والقيدُ طقسٌ والعذابُ عبادةٌ

والذلُّ دَيْنٌ والرحيلُ حلولُ

بدويةٌ في النقبِ تلك شقيقتي

وابني المثلثُ والحفيدُ جليلُ

والقاسطون الطارئون طحالبٌ

وجذورُ روحي زنبقٌ ونخيلُ

أنا نطفةٌ أبديةٌ ولينتثر

أيدي الرياح الزور والتدجيلُ

قاسٍ يقينُ الحبِّ، قاسٍ أنهُ

أغضى اليقينُ وكابَر التأويلُ

وأمرُّ من كأسِ الحمام قتيلةٌ

في شعرها المحلول نام قتيلُ

وأصيحُ من غضب أصيحُ ولوعةٍ

عارُ الحضارةِ شعرُكِ المحلولُ

وطني، فلسطيني، فمي ولواعجي
يفديكَ يومي والغدُ المأمولُ
هل عاش جيلٌ للشهادة والفدا؟
لا ضيرَ، سوف يعيش عرسكَ جيلُ
ما غادر الشهداءُ صدرَك عارياً
لكنّ ظهركَ خاذلٌ مخذولُ
دولٌ إذا نطقتْ بدت عربيةً
وفعالُها عَجَمٌ وإسرائيلُ
لكنها حالٌ تحولُ وإنها
دولٌ تدولُ ويحصُلُ التحصيلُ

قطعانَ جلّادي! اقضمي وتجشأي

كَلأ الردى.. طَرْفُ الرعاةِ كليلُ

ودهورهم يوم الحساب هنيهةٌ

وحسابُهم عبْر الدهورِ طويلُ

وعلى ضجيجِ الأرضِ دَوَّت صيحةٌ

وعلى أجيجِ الشمسِ قامَ دليلُ

يا آخر الحكام! أولُ حكمةٍ

أن المشيئةَ ساعدٌ مفتولُ

ومشيئة الانسانِ زهرةُ طفلةٍ

يَبْلى عليها الصارمُ المصقولُ

يـــا آخـــر. الـحــــكــــام، صــــمــــتـــاً، إنـــــه

عـــدلُ الـحــيـــاةِ مــدى الـحــيـــاةِ قـــؤولُ

فاسـتـغـلـقـوا واسـتـغـرقـوا واسـتـبـسـلـوا

واســتــرسـلــوا وتــطــاولــوا وأطـيـلــوا

مـهـمـا اعـتـصـمـتـم بـالجـيـوش قـويـةً

ولـــدي عــلـــى أقـــوى الجـــيـــوش يـــبـــولُ

ورســالـــة الأحــيــــاءِ يــسـطــع نــورهـــا

فـــوق الـــديـــاجـــر، والـــشـــهـــيـــدُ رســـولُ

والمـــوعـــدُ المـــيـــمـــونُ: قُـــدْسٌ حـــرَّةٌ

مـــلءَ الــــزمـــانِ وغـــزّةٌ وخـــلـــيـــلُ!

(قصيدة الشاعر في حفل تأبين الشهيد فهد القواسمي في قاعة الكلية الابراهيمية- القدس العربية المحتلة ٢٢ شباط ١٩٨٥).

شـــرف العائلـــة

تـقــولُ : " أحـبـكِ مـن كـل قـلـبـــــي ! "

وتجـذبُ خــاصـــرتـــي الجــافِـلــة

فـــــأهــرب مـنـك الــى كـهـفِ رُعـبــي

وألجـــأُ لــــلـــدمـــعــــة الــــذاهِـلـــه

وتـــعــلـمُ أنـك بـســـتـانُ حُـبِّـــــي

ومـــا تـشــتــهـي وردتـــي الــذابــلـــة

ولــــكــنّ جــســمــيَ ســاحــةُ حـــرب

يــســمّــونــهــا "شــرفَ الــعــائــلــةْ"

تــبــشــرنــي بــحــيــاةٍ ســعــيــدهْ

وتــفــتــحُ بــاســمــيٍ بــلاداً جــديــدهْ

وتــنــثــرُ تحــت خــطــايَ الــنــجــوم

وتُــقْــســمُ بــالحــبِّ أنــي الــوحــيــدهْ

أجــلْ يــا حــبــيــبــي . أصــدّقُ.لــكــنْ

إذا مــا ضَــعُــفْــتُ أصــيــر شــهــيــدهْ

يــحــنّــي دمــي مــذبــحــاً مــن عــظــامــي

يــســمّــونــهُ " شــرفَ الــعــائــلــةْ"

حبيبي. أُحبكَ من كلِّ قلبي

وأعشقُ فيكَ بلادي وشعبي

ولكنَّهُم حرَّموا أن أراكَ

وبثُّوا قبائلَهُم حول ثوبي

وسَنوا سكاكينهم فوق رأسي

ودقوا الطبولَ وهبّوا لصلبي

على خشباتِ صليبٍ عتيقٍ

يسمونَهُ " شرفَ العائلهْ "

حرامٌ علينا حبيبي حرامُ

عناقُ أصابعنا والغرامُ

صداقتُنا يا صديقي حرامُ

وضحكتُنا يا زميلي حرامُ

وأجسادُنا يا حبيبي حرامُ

وأشواقُنا يا رفيقي حرامُ

وكلُّ أناشيدنا باطِلَة

ففي صمتِنا "شرفُ العائلة"

وكلُّ مواعيدنا باطلة

فمن موتنا " شرفُ العائلة"

تقولُ "أحُبكِ من كلِّ قلبي"

وتفضَحُني الألسنُ الجاهِلة

أقــولُ " أحــبــكَ مــن كــل قــلــبـــي "

فــتــجــرحــنـــي الأعــيُــنُ الــقــاتِــلَــة

تــقــولُ حــبــيــبــي. أقــولُ حــبــيــبــي

ويــذبــحُــنـــي " شــرفُ الــعــائــلــة " ..

(لحَّنها: رامي زيتون
وغنَّتها: سيدر جبران-زيتون)

حنّاء العروس

جَلْجِلْ بِصِفْدِك... إنها صمّاءُ
أمُّ الزمان، وبنتُهُ عمياءُ
جلجل، وزلزل بالقيود عواصماً
يزني بها الأهلون والغرباء
واقبض على القضبان كفاً طالما
شبّت، فشبَّ على الهوان لواء

يا فارس الأغلال، أية صهوةٍ

عزّت عليك؟ وهل عصت أمداء؟

رابِطْ وقد بكت المرابط خيلها

واصمدْ، ويأس الصامدين رجاء

ألهَمُّ همُّك أمَّةٌ موجوءةٌ

وهمومهم جاكلين أو وطفاء

لا بأس إن هم أودعوك سجونهم

ألحرُّ أنتَ وإنَّهم سجناء

أشباه أشباه الرجال تطاولوا

لكن لتقصُرَ منهم الحوباء

ألـقـيـد قـيـدك والمـكـبّلُ بـغـيـهـم

ومـصـيـر سـجّـانـيـك كـيـف تـشـاء

فـارفـع جـبـيـنـك لـلـسـمـاء وإنـهُ

أرضٌ عـلـى أنـقـاضـهـم وسـمـاء

ألـسُّـمـر مـن لـهـو الـشـواطـىء أزمـعـوا

أمـراً، وأمـرُكَ جـبـهـةٌ سـمـراء

قـبـسـتَ لـهـيـبَ الـكـادحـين فـضـوَأتْ

بـلـهـيـب كـدحـك ثـورةٌ شـعـواء

جـلـجـل بـصِـفْـدك.. إن نـاقـوسَ الـعـلـى

رسـغٌ تـثـور وفـكـرةٌ حـمـراء

واضرب بموتك موتهم واصعد على

سقط المسوخ وقد بغى الجبناء

عربيةٌ ألفاظُهُم، قرشيةٌ

واذا سبرتَ فروحُهم عجماء

ولدى المعارك لا ترى أثراً لهم

ولدى الزعامة، كلهم زعماء

عقمت حلومُهُمُ وساءَ مآلهم

وبخزيهم يوم التراجح باءوا

أقوالهُم ما صحّ غير صحيحها

وفِعالُهم ما تأملُ الأخطاء

هل يذكر اليرموك صولة خالدٍ

أم أن ذاكرة الخلود هراء

ولمن يبوح المثقلون ودونهم

نقصَ المريضُ وزادت الأدواء

وأنا أسير الرومِ أنزف حسرتي

وتحزّ عنقي صيحتي الخرساء

للقدس صلباني وجلّقُ شاهدي

وتهلل الفسطاط: راحَ وجاءوا

ودمي على الأردنّ وردٌ ذابلٌ

فمتى يبلُّ صدى ورودي الماء

عمان قابلتي ومهد طفولتي

سلطٌ وحبلُ السرّةِ الزرقاء

والمعرضون إذا شكوت أحبتي

والأهل أهلي السذّج الفقراء

إن يضربوني فالعذاب عذابهم

والكاسبون الوزرُ والوزراء

يا ابن الردى والشمس، جُرحكَ صيحةٌ

وبحبرِ جرحك تُكتب الأنباء

وعلى خطاك يُشجُّ ليلٌ باهظٌ

وتعود في أجسادِها الأسماء

فاخضدْ بقيدك ليلهمْ واصعد على

عتماتهم.. إنَّ الطريقَ مُضاء

ألشمس شمسُك والعروسُ جميلةٌ

والعرسُ عرسكَ.. والدَّمُ الحنّاء!!

(١٩٨٦)

أُعيذ الحق!

وَردُ الربيع أم الدَّمُ المتفجِّرُ

من أين لونك أيهذا المنظرُ؟

والزقزقاتُ، من العصافير التي

عادت، أم النائي الذي يتحسَّرُ؟

وبمن تلوذ سنابلٌ حبلى وقد

ضاع الأولى بذروا وضاع البيدرُ؟

سرٌ وجهرٌ والشجون وفيرةٌ

ماذا نُسرّ من العذاب ونجهرُ

ونجيُّنا السيل المُملّ، وإنه

ليلٌ يطولُ على أناةٍ تقصُرُ..

وكبا الكلامُ فكل عَيٍّ مصقعٌ

وجذا الظلامُ فكل رَذمٍ قيصرُ

سَلسَتْ لكفِّ الأجنبيّ ذقونُنا

وعلى الظهورِ تربَّع المستعمرُ

فمن المحيط إلى الخليج سدانةٌ

مكسورةٌ.. وشَكيمةٌ لا تُكسرُ

ومن الظلامِ إلى الظلامِ مهاجرٌ

مخضوبةٌ قهراً وجرحٌ ينغرُ

والدارُ.. قيل تقدَّستْ وتباركتْ

وعلى قبابِ القدسِ وبشٌ يسكرُ

ويبيح باسم الله كلَّ مُحرَّمٍ

ويلصُّ باسم الأنبياء ويقهرُ

فليستجر ربُّ العباد بربّهِ

وليعصم النسَّاكَ من أن يكفروا

للمبصرين صوارفٌ ومعاذرٌ

يا جنَّتي انتظري لَعَلِّي أُبصرُ

ولكلٍّ مُفتئتٍ عليك بباطلٍ

يومَ الشواهد ميسمٌ متغوِّرُ

طفلٌ يشدّ إليه جثّةَ أمِّهِ

صوِّر إذن ما في غدٍ تتذكَّرُ

وامنحهُ سكَّرةً وداعبْ شَعرهُ

يا أيهذا القاتلُ المتحضِّرُ

فبراءةُ السفّاح عدلٌ مطلقٌ

وجريمةُ المغدور ،لا..لا تُغفَرُ!

أَلليلُ طالَ، الليل طال، وفرَّختْ

في القلبِ أحزانٌ وأعسَرَ مُعسِرُ

ونمتْ على الأفق الرمادِ طحالبٌ

وانثال في السُّبُل الهَلامُ الأزْورُ

لكنها حالٌ تحولُ وإنَّها

دُوَلٌ تدولُ وكلُّ خافٍ يُسفِرُ

إنَّا لها، إنَّا لها، ويمينُنا

بعثُ الشهيد وموتنا المتكرِّرُ

إنَّا لها، دنيا تُخيِّرُ غيْرَنا

وتظلّ دنيانا التي نتخيَّرُ

ونبيُّنا طفلٌ تدثَّر بالردى

شيخاً وقام إلى الحياةِ يُبشِّرُ

غِـبَّ المُـحـول ممـضَّـةً بِـمِـطـالـهـا

شـغـفٌ عـلـى بـيـد الـضـمـائـر يُـزهـرُ

والـعـاشـقُ المـفـؤود شـعـبٌ صـائـمٌ

آلـى بـغـيـر إدام حـقٍّ يُـفـطِـرُ

شـعـبٌ إذا عـزَّ الـبُـغـاةُ بـبـغـيـهـم

فـهـو الأعـزُّ مـن الـبُـغـاةِ الأكـبـرُ

مـن كـلِّ راسـخـة الـيـمـينِ وراسـخٍ

قـسـمـاً: نُـغـيـر عـلـى الـرّدى ونُـغـيِّرُ

بـيـضُ الـقـلـوب، عـلـى الخـنـى مـسـودَّةٌ،

والأخـضـر الـغـدُ، والـلـواء الأحـمـرُ!!

(١٩٨١)

تَوْءَمان

أتضنُّ المنى بخلٍّ وفيٍّ

حَدَّ إمكانهِ انتهى مُستحيلُكْ؟

ويضيقُ المدى بآيةِ نورٍ

تحتَ ليلٍ يجُبُّهُ قنديلُكْ؟

لا وربِّ الجهاتِ. مهما تناءَت

عن سبيلي خُطاً نماها سبيلُكْ

لـن يـعـزَّ الخـلُّ الـوفـيُّ مـنـالاً

لا ولـن يُـعـوزَ الأصـيـلَ أصـيـلُـكْ

جـئـتُ فـامـنـحْ دمـوع عـيـنـيَّ صدراً

يـا خـلـيـلَ الـرحـمـن.. إنّـي خـلـيـلُـكْ

أظـمـأتْـنـي كـوارث الـدهـرِ دهـراً

فـلـيُجـرنـي مـن حُـرقـتـي سـلـسـبـيـلُـكْ

وتـأمَّـلْ وجـهـي وجُـسَّ ضـلـوعـي

يـا ابـن أمّـي يـطـلَّ مـنـي جـلـيـلُـكْ

هـهـنـا نـحـن.. دمـعـتـان وجـفـنٌ

فـلـيُـكـفـكِـفْ عـذابَـنـا مـنـديـلُـكْ

ولـــنـــرتّــلْ جــراحَـنــا صـــلـــواتٍ

لمقـيـلٍ، مـن عـثـرتـي قـد يُـقـيـلُـكْ..

هـــهــنــا نـــحـــنُ تـــوءَمـــان عـــذابـــاً

لا تَـقُـل فـــي الـــعـــذابِ عـــزَّ مـثـيـلُـكْ

جـئـتُ فـارفـد نـزيـفَ روحـي بـعـرْقٍ

يـا خـلـيـل الـرحـمـن.. إنّـي خـلـيـلُـكْ!

(١٩٩٣)

القصيدة الشامية..

ظَمِيءٌ. وأنتِ الكأسُ والصهباءُ

يا شامُ، فليتحلّقِ الندماءُ

حَكَم القضاءُ بغربةٍ مغبونةٍ

فقضى الكفاحُ بأن يتمَّ لقاءُ

وأتيتُ. لا متسلّلاً متخفياً

لكن بما يتخيَّلُ الخُيلاءُ

شفتي منصتةٌ أمتي. وهديرها

نورٌ تراهُ الأعينُ العمياءُ

لبّيكِ! ها أنذا أعانقُ إخوتي

ظمئاً يساقيهِ العناقَ ظِماءُ

أوَمِن ملامٍ لو عَصَبنا جُرحنا

وَحَنتْ علينا ليلةٌ قمراءُ؟

لي فيكِ من فجر الخليقةِ مجلسٌ

ثملتْ بطيبِ أريجِهِ الأرجاءُ

وبغيرِ فوْح العزِّ في جَنَباتهِ

ضَنَّ اللسانُ بأنكِ "الفيحاءُ"

وانـفـضَّ مـجـلـسُـنـا بـقـدرةِ قـادرٍ

وعـلا عـلـى أقـدارنـا الـضـعـفـاءُ

بـيـضٌ صـنـائـعُـنـا.. وسـاءَ صـنـيـعُـهُـم

سـودٌ وقـائـعُـنـا. وبـي سـوداءُ

خُـضـرٌ مـرابـعـنـا.. وأفـقـي قـاحـلٌ

وهُـمُ المـواضـي.. مـن دمـي حـمـراءُ

وغـدوتُ فـي وطـنٍ كـأنّ تـرابَـهُ

"صـخـرٌ".. ومـاء عـيـونـه "الخـنـسـاءُ"

وأتـيـتُ بـي وجـعٌ أبـثُّـكِ بـعـضـهُ

فـعـسـى تـخـفّـفُ وطـأهُ صـعـداءُ..

مـن جـمَّـعَ الأضـداد حـولَ تـخـومـنـا

فـبـغـى الـبـغـاةُ وعـربَـدَ الـدخـلاءُ؟

وبـأيِّ قـسـطـاسٍ يـراجـحُ عَـدْلَـنـا

وحـشُ الـبـحـارِ، وحـيّـةٌ رقـطـاءُ؟

قـدرتْ عـلـى الـوَهَـن المـكـبَّـل قـدرةٌ

وعـنـا لـتـجّـارِ الـدمِ الـفـقـراءُ

وسـلـمـتِ لـي يـا شـامُ دون سـلامـتـي

ومـكـثـتِ. فـلـتـتـبـدَّلِ الأنـبـاءُ

غَـبَـرتْ أمـيّـةُ فـي زمـانٍ غـابـرٍ

لا بـأس أنّـا الـصـفـوةُ الجُـلـسـاءُ

صبَي حُميّا المجدِ في لهواتنا

فلَكَم عَطِشنا، والخنا سقاءُ

كَرُمتْ أصولٌ أنتِ بعضُ فروعها

فلْتنضج الأثمارُ كيفَ تشاءُ

أهلٌ. ونعم الأهل. كانوا وانقضوا

سُنَنَ الحياةِ. وها هُمُ الأبناءُ

ياشامُ. جئتُ. فلا تريني مفرداً

في مهجتي أهلُ العروبةِ جاءوا

عَسُرتْ على كِبْرِ الأكابِرِ وَحْدةٌ

عسرتْ.، فيسَّر أمرها البسطاءُ

ما شتّتت شمل العروبةِ زعزعٌ

إلا ولمّتْ شملها نكباءُ

وتحاكُ من مِزَق الشعوبِ حبائلٌ

وعلى الهوانِ تُبجَّلُ الأهواءُ

ينمو على عودِ النميمةِ مفسدٌ

بمشيئةٍ من قيصرٍ مَشّاءُ

ويقوم في ليلِ المقابِرِ قائمٌ

وعلى المنابر يلغطُ الخطباءُ

يعظونَ بالحسنى. وأحسَنُ وعظِهم

أنْ: فرِّقوا ما جمَّعَ الآباءُ!

والشرُّ علمُ الغربِ قُبِّحَ عالماً

والخيرُ دولاراتُهُ الخضراءُ!

ويعلِّمونَ بجهلهم علماءَهم

ليقال في جهلائهم: عُلماءُ

باسمِ المذاهبِ يحشدون حشودَهم

ومع المذاهبِ تذهبُ الآراءُ

سنيَّةٌ. شيعيّةٌ. علويّةٌ.

درزيّةٌ. والمؤمنونَ سواءُ

قبَسوا من القرآن ضوءَ قلوبهم

ومن الأناجيل استقوا فأضاءُوا

أيَضيرُ تغلبَ أن نصرانيَّةٌ

وَلدتْ. فكانَ الإخوةُ الخُلَصاءُ؟

أصلابُ يعربَ لم تلدنا خلسَةً

لو أنكرتنا دايةٌ شمطاءُ

عربيةٌ غاياتنا. عربيةٌ

راياتنا يا أيها الفقهاءُ

نحنُ المسمَّى. والمسمَّى واحدٌ

عربٌ.. إذنْ فلتكثُرِ الأسماءُ!

يا شامُ. أعلمُ أنَّ قلبي زاعمٌ

ما لا يُقرُّ السادةُ الزعماءُ

لكنَّ بي ناراً أسرُّ أوارَها
لأجنَّةٍ. ستكونُ لا ما شاءوا

يا شامُ أعلمُ أنَّ عمري عابرٌ
حبراً على ورقٍ. وسِفْري الماءُ

وأصيحُ من وجعٍ. فهل مستكثَرٌ
للأمِّ في أبنائِها إصغاءُ؟

ناديتِ. لبّتكِ الجوارحُ. قبلَما
أذنَ العذابُ بأن يكونَ نداءُ

ناديتِ. ها أنذا جنوني واضحٌ
لاهندُ فاتنتي. ولا وطفاءُ

نَصَبَ الهوى ميزانَهُ. وتساءَلوا

ما كفّتاهُ؟-أنتِ والشهباءُ

ناديتِ. ها أنذا. جنوني فادحٌ

أرضٌ تضيقُ بلفحِهِ وسماءُ

مجنونُ ليلى واحدٌ بعذابِهِ

وأنا. عذابي أمّةٌ ليلاءُ!

لو مسَّ قاهرةَ المعزِّ معكِّرٌ

صفواً، هلعتُ: وكيفَها صنعاءُ؟

وإذا بكتْ بغدادُ ألحفَ هاجسٌ

قدساهُ! يا قدسي. أفيكِ بُكاءُ؟

وأهيمُ وجداً. غيرَ ما وَجِدَ الورى

ولدى جنونيِ يبرأ العقلاءُ!

وسواي يُثري: ثروةً أو ثورةً،

وبغير "مال الشام" ما الإثراءُ؟!

شاميّةٌ هلَّت. فأنكَرَ شانِيءٌ:

"من تلك؟". قلتُ: حبيبتي الحسناءُ!

شاميّةٌ. نطقتْ فصيحَ جمالها

نُطْقاً تلعثَمَ دونَهُ البُلَغاءُ

"شقراءُ". قالوا. قلتُ ذلك سرُّها

شقراءُ.. لكنْ روحُها سمراءُ!

قبّلتُها زقّ الحمامِ، فقبّلتْ
قلبي. وبان السرُّ والإسراءُ
وهتفتُ: لو جنّاتُ عَدْنٍ أقفرتْ
ممَّن نحبُّ، فإنها جرداءُ!
نزَّهتُ قلبي عن غرامٍ زائلٍ
فقسا عليَّ الحبُّ والبغضاءُ
وقسا على سقط اللواعج لاعجي
فقسا عليَّ الأهلُ والغرباءُ
وقسوتُ. حتى لا تلين قصائدي
إلا لصدقٍ.. ظنَّهُ الشعراءُ!

وأنا أسيرُ الروم. طفلٌ ضائعٌ

ضاقت به السرّاءُ والضرّاءُ

من قبْل يُتم الوالدين تيتّمتْ

لغتي. وضاعَ الإرثُ والورثاءُ

كسروا جناحَ طفولتي وتسلّقتْ

كنفي المهيضَ أشاوسٌ فُصحاءُ

وهوامشٌ عربيةٌ قرشيّةٌ

ومتونُها روميّةٌ عجماءُ

وشواربٌ شمّاءُ قحطانيةٌ

يا شامُ. لكنَّ الوجوه طلاءُ

فيهم من الفرسانِ كلُّ مفوَّهٍ

ومن السلاحِ، قصائدٌ عصماءُ

صالوا وجالوا في ثيابِ نسائهم

واستأنسوا إذ حمحم الأعداءُ

قالوا الجهادَ على غزاةِ ربوعنا

والفعلُ، حربٌ بينهم شعواءُ

وينزُّ جرحي صارخاً. وتصمُّ عن

جرحي البليغ الصخرةُ الصمّاءُ

ويطلُّ صوتكِ آسياً بجراحهِ

وتهلُّ كفكِ هذه السمحاءُ

نـاديــتِ. فــاســتــبَـقــتْ نــداءَك لــهـفـةٌ

فـيـهـا الـتـقـى الأحـرارُ والـسـجـنـاءُ

نـاديـتِ. جـئـتُ ولـم أجـيء. فـتـأمَّـلـي

وجـهـي يُـطـلُّ رجـالُـكِ الـقـدمـاءُ

أنـا مـن هـنـاك. ومـن هـنـاك. ومـن هُـنـا

بـمـوالـدي تـتـجـدَّدُ الـصـحـراءُ

لـم يـغـتـنـم جـسـدانِ مـضـجـعَ يـعـربٍ

إلا وكـانـت نـطـفـتـي الـعـربـاءُ

وقـضـى ورائـي ألـفُ دهـرٍ ألـيـلٍ

لـم يـقـضِ فـيـهـا كـوكـبـي الـوضّـاءُ

أقبلتُ.. يحملني حنينٌ جارحٌ
مُدّي يديكِ فأدمعي حنّاءُ
لكِ فيَّ من سفح الجليلِ زنابقٌ
سوداءُ، في عُرفِ الهوى بيضاءُ
رشفتْ من الجولانِ قبلةَ نسمةٍ
أنفاسُها ما حشرجَ الشهداءُ
وتحيةٌ عربيةٌ سوريةٌ
يحيا بها أبناؤكِ الشرفاءُ
الأوفياءُ سريرةً ومسيرةً
يوم التوَتْ سُبُلٌ وعزَّ وفاءُ

والناهضون وفي الأكفِّ بيارقٌ

لم يطوها الإرغاءُ والإغراءُ

لكِ فيَّ باقةُ لوعةٍ، فتساءَلي

ما عطرُها؟ أزنابقٌ؟ أدماءُ؟

وخذي يديَّ إلى يديكِ. وهدهدي

جرحاً، له في أن سلمتِ شفاءُ

سفري طويلٌ. والمسالكُ وعرةٌ

وتعبتُ. حتى ارتاحت الوعثاءُ

ظَمِيءٌ أنا. أَشفي الغليلَ ببلّةٍ

يا شامُ! وليتحلّق الندماءُ!!

(١٩٩٦)

ألقصيدةُ اللبنانيّة

لا تـأسَ. حـالُـكَ فـي المـواجـعِ حـالـي

ولـديـكَ. يـا سـنـدي. جـوابُ سـؤالـي

لو صحـتُ " مالـي والـعذاب " لَصحـتَ من

جُـبِّ الـرَّدى " مـا لـلـعـذاب ومـالـي؟ "

غـربـي وشـرقُـكَ شُـرفـتـا قـنّـاصـةٍ

وَجـنـوبـك الـدامـي جـبـينُ شـمـالـي

كُلُّ الجهاتِ تقاسمتْ أشلاءَنا

والأهلُ شأنُ نعامةٍ ورمالِ

شعبٌ. شعوبٌ. في الشِّعابِ تشعَّبوا

شُعَباً. وما شبعوا من الإذلالِ!

خَطَبوا. فما وَسِعَ الفصاحةَ منبرٌ

وتلعثموا في ساحةِ الأفعالِ

أهلٌ. تخلّى اللهُ عن أصلابِهم

لا كانَ ما آلوا إليهِ مآلي

نسجوا بمنوالِ البيارقِ. وادَّعوا

بعضَ البريقِ. وأحرقوا منوالي

ونهضتُ من موتٍ. فلاموني وقد

خَسِروا رثاءَ شجاعتي ونضالي!

لبنانُ. يا ابن أبي وأُمي. باعني

يا عمّ. عَمُّكَ. يومَ باعَكَ خالي

كنّا. وكنتَ. وكنتُ. ساحة دبكةٍ

وفتىً يطيرُ وراءَ رقّة شالِ

أسكرتَ بالعرق الحلال مطالعي

وملأتَ من عنب الجَمال سِلالي

وعليكَ من حَبَقي مِلاءَة سهرةٍ

وعليَّ منكَ عَباءَةُ الأزجالِ

قلبان من عَرَبٍ. ومن ذهَبٍ ومن
طَرَبٍ. أعانا واقعاً بخيالِ
كم أرزَةٍ مالت على زيتونةٍ
وعريشةٍ. حنَّتْ إلى عرزالِ
لكنَّهُم قدموا. بخيل خرافةٍ
صكَّتْ سنابكُها شموخَ جبالي
كسروا سياج حديقتي وتعلَّقوا
بمشاجبي. واستوطنوا سروالي!
وتقاسموا ذهبَ العروس غنيمةً
وتهافتوا نبشاً على أطلالي

قدموا بأجنحة الجحيم. وَأشعلوا

وَجَعَ النوى في سَحْبَةِ الموّالِ

واستمرأوا حُلماً يراودُهم بأن

ضربتْ صليبي ريحُهُم بهلالي

وصحوا. فما قانا الجليل متيحةٌ

خمراً.. وفي قاناكَ كأسُ مُحالِ

والحال. ما اجترحتْ عجائبُ سِحْرهم

إلا عجائبَ من دمٍ وضلالِ..

لبنانُ. أنفاسُ المحبِّ وديعةٌ

وهواكَ يطلبُ شهقةَ الزلزالِ

وأنا عليلٌ بالحنين إلى يدٍ

نعناعةٍ مشكورة الأفضالِ

وأتوقُ لوصنينُ يُهدي قطنةً

من ثلجهِ. للجُرح في عيبالِ

وفمي على رمل الصحارى قبلةٌ

ظمئتْ. ولَيسَ سوى مناهل آلِ

ويدايَ خلفَ الظَّهرِ شوقٌ جامحٌ

والحزنُ باب مُحكَمُ الإقفالِ

يسطو العبيدُ على جُذى حُرِّيَّتي

فأجرُّ تحت رمادهم أغلالي

أنــذا أســيــرُ الــرومِ. جــلــدي بُــردُهــم

وســيــاطُــهُــم لــهــبٌ عَــلــى أســمــالــي

وأطــلُّ مــن زنــزانــتــي لأرى عــلــى

قــســمــات وجــهــكَ مــحــنــتــي وهُــزالــي

وأرى زهــورَ دمــي ربــيــعــاً ذابــلاً

يــبــكــي.. وَتــضــحــكُ زهــرةُ الــصَّــلــصــالِ

لــبــنــانُ. ألــقِ إلــى المحــبِّ جــديــلــةً

مــن أرزِ بَــوْحــكَ لــلــنــهــارِ الــعــالــي

شــوقــي إلــيــكَ يــهــيــجُــهُ خــوفــي عــلــى

شــوقــي إلــيــكَ مــن الــعــذاب الــتــالــي

وعلى سفوحكَ إخوةٌ وأحبَّةٌ

في البال يوم فراقهم. في البالِ

سَألوا فقيلَ رحيلُكُم يومٌ. وما

عَلموا بيومٍ فاضَ عن أجيالِ

شاخوا. وشخْنا في الزمان. ولم نَزَل

في الحُلم صبْيَةَ روضة الأطفالِ!

أهلي ضيوفُكَ. والعيونُ بصيرةٌ

وقصيرةٌ أيدي المُضيف. خَوالِ

فاغفرْ وقد طالتْ عليكَ ضيافتي

واصبرْ على المقسوم من أهوالي

لي خلفَ أُفقكَ نجمةٌ ميعادُها

أجَلٌ يصارع لعنةَ الآجالِ

لبنانُ. يا ابنَ أبي وأُمي. إنها

كأسٌ وتعبُرُ.. حنظلي وزُلالي

ويكونُ ما سيكونُ. لبنانيّةٌ

تلدُ المسيحَ. بحطَّتي وعقالي

ويكونُ ما سيكونُ. تُبعثُ مكّةٌ

من مكَّةٍ.. ويعودُ صوتُ بلالِ

ويكونُ ما سيكونُ. يبرأُ يعربٌ

من عُقمه.. ويعجُّ كلٌّ خالِ

ويـتـغـيّـرُ الأحـوال عـدلُ دمـائـنـا

ونـرى المـسـمَّـى الحـيَّ فـي أسـمـائـنـا

وتـضـيءُ شـمـسُ الـلـه مـجـد سـمـائـنـا

لـبـنـانُ. نـحـنُ مـغـيِّـرُ الأحـوالِ!

(١٩٩٧)

ألقصيـــدة العُمانيـــة

(في رحلته الأولى إلى سلطنة عُمان، كان على سميح القاسم أن يمكث أكثر من تسع ساعات في ترانزيت المطارات، من اللد إلى عمّان إلى دُبيّ إلى مسقط. وعبر انتقالاته هذه سكنه هاجس تراثيّ ولّدته لديه تجربة العودة إلى ساعد الأمّ الصحراء، وإلى الساحل العمانيّ المجيد العريق، على مخارج خليج عُمان وبحر العرب، ومداخل الربع الخالي الرائع الرهيب الرحيب. وتبلورت في هذا الهاجس أبيات القصيدة التي منحها صاحبها اسم "ألقصيدة العُمانية"، احتفالاً بعودته إلى منابته الأولى في شبه جزيرة العرب، قبل نيف وألف عام.. وقد سجّل تلفزيون سلطنة عُمان هذه القصيدة بصوت الشاعر).

طَفْحُ الـثـلـوجِ. ولَـفـحـةُ الـنـيـرانِ
قِـسـطٌ. ومـيـراثُ الـرَّدى قِـسـطـانِ

وأنـا الـوريـثُ. حـمـلـتُ نـعـش طفـولـتـي
شـلـواً يـتـيـمـاً ظَـنَّـهُ أبَـوانِ

وأقمتُ حُرّاً في السجونِ، ولم أزلْ
حُرّاً، وقيدي مُثقِلٌ سجّاني

كثُرتْ عليَّ من النوازلِ طُغمةٌ
كثرتْ وقلَّ على المكانِ مكاني

ووقفتُ للنكباتِ، صدراً عالياً
ويداً تُشيرُ ليعبُرَ الحَدَثانِ(*)

متوحّداً بين النهارِ وليلِهِ
وزمانُ أهلِ الأرضِ غيرُ زماني

يَوْمي على الألوانِ شَقٌّ، وإنّني
خمسونَ حَوْلاً لم تُحِلْ ألواني

واستبدلتْ حولي اللغاتُ وجوهَها

والوجهُ وجهي. واللسانُ لساني!

لكنَّ بي وَجَعاً أُكفكِفُ نارَهُ

بغدٍ. وأمسي مُشْعلٌ أحزاني

أمسي. وتنزو في ضلوعي غُصَّةٌ

كَظَمتْ، وقاراً، غُصَّةَ البُركانِ

لو لم يكنْ أهلي سبايا يأسِهِم

لَيَئستُ من ناري وَصَبْرِ دُخاني

أَو لم يكن أهلي ضحايا بؤسهم

لشكوتُ ما اقترفوهُ من حِرْماني

هَجَروا المهادَ وطفلُهُم في مَهْدِهِ

نَهْبَ الرياحِ وشهوةِ الطغيانِ

ولدوهُ للنسيان. في أهدابِهِ

وفي شَفَتيهِ رَجْعُ أذانِ

"أللهُ أكبَرُ". صيحةٌ مذبوحَةٌ

أصداؤها في ذمَّةِ الرحمنِ..

وإقامةٌ منفيً. وجُرحٌ ناغرٌ

ومُدىً مدرَّبَةٌ على الشريانِ

ويصيحُ طفلُ الموتِ ملءَ عذابِهِ

ويدقُّ باباً.. خلفهُ بابانِ

ويبوحُ من تَعَبٍ ومن عتبٍ ومن

غضبٍ. يبوحُ بلوعةِ الهجرانِ

غنَّى المغنّي للأمومةِ. ذاكراً

أفضالَها. وأمومتي تنساني!

لكنَّهُ نسغٌ يمدُّ جذورَهُ

وفروعَهُ بشفاعةِ الإيمانِ

وإرادةٌ شبَّتْ على أطواقِها

فلينهضِ الإنسانُ في الإنسانِ

أنذا الفلسطينيّ. شَدَّ جراحَهُ

وطناً يُضَوِّيءُ عتمةَ الأوطانِ

وأنا شآميٌّ. ومصريٌّ. ومن
شَغَفٍ وصلتُ جزائري بعُماني

وَغسَلْتُ في طُهر الفراتِ خطيئتي
وجعلتُ روحَ النيل من كُهّاني

وحملْتُ وردةَ يعرُبٍ. حِرْزاً على
شوكٍ يكونُ. ورُقْيةً لكيانِ

صَعَدْتُ من أفقٍ إلى أُفقٍ إلى
أُفقٍ. وما كانَ البُراقَ حصاني

لكنَّ ميراثَ الجدودِ رسالةٌ
نادتْ. فلبَّى حارسُ الوجدانِ

شفتي لميثاقِ العروبةِ منبرٌ

أعلى. وحرفي فارسُ الفُرسانِ

ويدي على النكباتِ فُلْكٌ صاعدٌ

من كلِّ جنسٍ أمَّةُ زوجانِ

وورثتُ أيوبَ العذابِ وصَبْرَهُ

وورثتُ نوحاً. فليكنْ طوفاني

يَبْلى على لحمي الحديدُ. وتنحني

لدمي زحوفُ الفُرسِ والرومانِ

وأموتُ. لا للموتِ. لكنْ للرضا

بحياةِ رَغْدٍ. في رضا رضوانِ

مِن قسمةِ الشُّهَداءِ أطلبُ قسمتي

روحاً يعافُ تَواصلَ القُمصانِ

هذا أنا. نورُ التجلِّي هاجسي

لا هاجس الشهواتِ في الأبدانِ

وأنا من الصحراء نبضُ مَرابعٍ

ومَراجعٍ ومواجعٍ وَمَعانِ

وأنا ابنُ يَعْرُبَ. بِكرُهُ وصغيرُهُ

وأخيرُهُ في عُقمِهِ الروحاني

أوصى. فما خَذَلَ الوفاءُ أبوَّةً

ووصيَّةُ الآباءِ دينٌ ثانِ

أوصى. فيا روحَ الصحارى استيقظي

أسِنَ النعاسُ على قذى الأجفانِ

وصحا الجليليُّ المجلجِلُ عاصفاً

ومُبشِّرُ الراياتِ بالخَفقانِ

أنذاهنا. من نخْلِ "مَسقطَ" مُسقِطٌ

رُطَباً جنيّاً طابَ في بُستاني

ودّعتُ بيتي المقدسيَّ. وجئتُكُم

قلباً يُباعِدُهُ الهوى قيُداني..

أنذا. ونحنُ. هنا. سلالةُ يَعْرُبٍ

ورسالةُ الإخوانِ للإخوانِ

عَرَبٌ إلى عَرَبٍ، وتفتحُ بابَها

جنّاتُ عَدْنٍ. يا بني عَدْنانِ

عَرَبٌ إلى عَرَبٍ، وتُبعَثُ أُمَّةٌ

من أُمَّةٍ خَطَرَتْ على الأكوانِ

ويجدِّدُ الإدراكُ عهدَ رسالةٍ

سطعتْ من الإنجيلِ والقرآنِ

عَرَبٌ إلى عَرَبٍ.. وتُبصرُ وَجْهَها

شَمسٌ. وتذكُرُ مَجدَها النّورانيَ!

---

* الليل والنهار.

بائيـــة العـــرب

تـخـشَّـبَ الـوجـهُ.. أم مـرآتُـهُ خَـشَـبُ؟

أمْ أسفرتْ مهجةٌ، فاستعصت الحُجُبُ؟

وهــاجَـرَ الــنــورُ، أم سُـدَّتْ مـنــافـذُهُ

سـألـتُ شـمـسـاً، فردّت بـالـصـدى سُحُبُ

واسـتـنـفـر الــسـرُّ أسـراراً يـلـوذ بـهـا

وآثَــر الجــهــرُ ألا يُـــحـــرَجَ الأدَبُ

فغادرتني أغانٍ كُلُّها تعبٌ

وحاصرتني مراثٍ، بعضُها التعبُ

وأرسلتْ راحتي للقلب حيرتها

فكادَ، حيرانَ، من أضلاعِه يثبُ

وساورتني همومٌ لستُ فارِسها

فبتُّ في ظمأٍ، والوجدُ ملتهبُ

يَسحُّ جرحي على جرحيِ، ومن وجعي

تذوي الربابةُ، والمزمارُ يكتئبُ

وكدتُ من عجبي لا أدَّعي عجباً

وكادَ من غضبي أن يغضبَ الغضبُ

بـلادُ أهـلـي إذا اسـتـعـطـيـتُ مـانـعـةٌ

ولا يُـردُّ لـبـاغٍ عِـرضَـهـا طـلـبُ

سـبـيّـةٌ، يمـتـطـي الأغـرابُ سُـرَّتـهـا

وأهـلُـهـا، طـاريءٌ فـيـهـا ومـغـتـربُ

مُـنْـيـتُـهـا وحـدةٌ فـي الـدهـرِ واحـدةٌ

ويـومَ لامـسـتُ عـرَّتْ وهـمـهـا حـقـبُ

هـا نـحـنُ. مـن نـحـنُ؟ أعـرابٌ وبـاديـةٌ

وجُـهـدُنـا، مـا تـدرُّ الـنـوقُ، والـرُّطَـبُ

قـبـيـلـةٌ يُـسـرهـا فـي عُـسـر جـارتـهـا

وصـرخـةُ الـيُـتـم مـن أخـتٍ لـهـا، طـربُ

مـن نـحــن؟ هــا نــحــنُ. أوصـــالٌ ممــزقــةٌ

لا طُنْبَ يشقعُ في وصلٍ. فهل طُنُبُ؟

نـسـجُ الـعـنـاكـب مـا يُدعـى خـرائـطـنـا

ولــلــتــوجُّـس شــراً يمـثُّـلُ الـسـبـبُ

فــي كــلّ نــاحــيــةٍ، والأرضُ ســائـبــةٌ

تُــمــزّقُ الــريــحُ، والأمــواجُ تــنـتــهـبُ

ولــلــغُــزاةِ جــمــوحٌ خــائــضٌ دَمــنـــا

ولـلــطــغــاةِ عــلــى أشــلائــنــا نُـصُــبُ

آلــتْ–فـكـيـف؟–غـبــارَ الـنــاسِ أمَّــتُــنــا

وكـيـف حــالـت رمــاداً أرضــنــا الـذهــبُ!

تصارعتْ في خفايا سِرِّنا أممٌ
لا نحن منها ولا فيها لنا أرَبُ

كأنها ورثت بالعدلِ منزلنا
ونحنُ مقتحِمٌ فيهِ ومغتصِبُ

من الملومُ؟ وفينا ضافياتُ أسىً
طامٍ، وصوتُ دعاةِ الحقِّ مُقتضبُ

منائرَ الروحِ هل غشَّتكِ غاشيةٌ
تعمَّم الجهلُ فيها والتحى الكذِبُ

ونازعتْنا على الأوطانِ نازعةٌ
والظلمُ مُتَّزنٌ والأمنُ مضطربُ

ولا صباحَ بلا رؤيا مباعِدَةٍ

ولا مساءَ بلا عمياء تقتربُ

لأيِّ يُتمٍ ترى آلتْ سلالتُنا

فليس يجمعنا في محنةٍ نَسَبُ

وأنكرتْ رحمها في العُسر والدةٌ

فبعدَ هاجرَ هل أمٌّ لنا وأبُ؟

أستغفرُ الله في إثمٍ يضيقُ بنا

ويزدرينا فلا تُستغفَرُ الذُّنوبُ

وتزدرينا الأماني دونَ مُحتسَبٍ

وتصطفينا المنايا كيف نحتسبُ

أستغفرُ اللهَ في إثمٍ نضيقُ بهِ

ونزدريه، فتقفو كُربةً كُرَبُ

تلالنا لأزاهير الردى. ودمٌ

على المروجِ. وأسرابُ الرُؤى لَهَبُ

وزهوُنا بأناشيد الرضا غَرَقٌ

وجلبةُ الخلقِ في ساحاتنا هَرَبُ

ونسلُنا غلّةٌ للقفر غلَّتُها

وحالُنا حالُنا. والكونُ منقلبُ

وَسَادةٌ ثَلَّةٌ، ثُلَّت سيادتهُم

يحاصرون الغدَ الآتي بمن ذهبوا

للأجنبيِّ ارتضوا قربى على جَنَفٍ
وقاربتْهم قلوبُ الشعبِ، فاجتنبوا

تقلُّ فينا مع الأيام قلَّتُنا
وفيهمو تكثر الألقابُ والرُّتَبُ

قصورهم في ليالي الأنسِ راقصةٌ
على أغاني الهوى. والقدسُ تنتحبُ

ويثملونَ، وقد بتنا خوابيَهُم
وإن شَحَحْنا، فمن أحداقنا العِنَبُ

وجُلُّ أحلامهم أنّا نبايعهُم
وكلُّ أحكامهم أن تهلع الرُّكَبُ

كم لقّقوه غداً نبكي على غده

وضَيَّعوا اليوم ما من أمسنا سَلَبوا

وينطقون، فما أنقى عروبتهم

ويفعلون، فتلحو نسلها العَرَبُ

ويُضرَبون علينا في مباذلهم

فلا يثور لهم عرقٌ ولا عَصَبُ

لا بارك الله في خلقٍ إذا صُفِعوا

وَقيل: ما الردُّ؟.. ردَّت عنهم الخُطبُ

وباركَ الله في نارٍ تؤرِّثُها

ناري، فكلُّ طواغيت الخنى حَطَبُ

أنـا الـعـروبـةُ! أحـنـتْ ظـهـرهـا سِـنَـةٌ

طَـالـت وآن أوان الـصـحـو، فـانـتـصِـبـوا!

لـنـا المـواعـيـد أشـتـاتٌ يـلـمـلـمـهـا

مـسـتـقـبـلٌ فـي سـديـم الـغـيـب مُـرتـقَـبُ

أنـا الـعـروبـةُ! فـائـتـونـي. أُعِـزَّ بـكـم

مـا يـرتـضـي الـلـه. والأسـلافُ. والـكُـتُـبُ!

(١٩٩٢)

أَلممثِّل

وأَخيراً. ها أنتَ. يُرخي السِّتارُ

في هدوءٍ. وتُطفأُ الأنوارُ

يخرجُ الناسُ. ثُلَّةٌ فُرادى

وتُجافي المقاعِدَ الأَسرارُ

قُضيَ الأمرُ. مسرحٌ غادَرَتْهُ

في ختامِ المَشاهِدِ الأبصارُ

وانسدالُ الغيومِ باتَ يقيناً

فَسَلِ الشكَّ هلْ همَتْ أمطارُ؟

حائرٌ أنتَ. هل أجَدْتَ أداءً

أمْ تخلَّتْ عن دَوْرِكَ الأدوارُ؟

لم تُمثِّلْ. صغتَ الحياةَ فلا كُتَّابُ (م)

نصٌّ. والمخرجونَ ابتكارُ

لم تُمثِّلْ. كنتَ الجماهيرَ فرداً

واستعارَ الممثِّلَ النُّظَّارُ!

كنتَ من كنتَ. ألفَ دورٍ ودوراً

والنِّهاياتُ خيبَةٌ وانكسارُ

كنتَ قيساً. وعندَ ليلى خَيارٌ
ولعرضِ الأزياءِ كانَ الخَيارُ

أنتَ قلبٌ شريانُهُ الوجدُ. لكنْ
قلبُ ليلى شريانُهُ زُنّارُ

جئتَ ليلى في القَرِّ تطلبُ ناراً
عُدْ كما جئتَ. ليسَ ثمّةَ نارُ

لم تُمثِّلْ. شُغفتَ حُبّاً بليلى
وفتاها المفضَّلُ.. الدولارُ!

لم تُمثِّلْ. أنطقْتَ قلباً جميلاً
فتّحَ الوردُ فيهِ والجُلّنارُ

قيلَ قيسٌ من قومِ ليلى. كلامٌ

في كلامٍ. فقومُها التجّارُ!

إنّهُ الدَّورُ يا ممثِّلُ. فاخترْ

دونَكَ الصمتُ مطبقاً.. والحوارُ

يا صديقي. ولم تُمثِّل فللخذلانِ (م)

أرضٌ. وللخطايا بِذارُ!

كنتَ من كنتَ في الجحيمِ رسولاً

ضاعَ. لا هجرةٌ. ولا أنصارُ

كنتَ من كنتَ. "خالداً" في السرايا

و "ابنَ زيدٍ".. وحولكَ الثوّارُ

لــم تُــمــثِّــلْ. نــزفــتَ روحَــكَ حــرفــاً
تــلــوَ حــرفٍ. وفــي الــعـــروقِ أُوارُ

صـادقٌ أنـتَ. والأكـاذيـبُ نـسـغُ الـدورِ (م)
فـــاحـــذرْ. لـــن تـــشـــقَّـــعَ الأَعـــذارُ!

لـفـظـةُ "المجـدِ" فـي الـقـواميـسِ نـامـتْ
و"المـعــالـــي" أغـفـى عـلـيـهـا الـغُـبـارُ

و"الـغـطـاريـفُ" لـفـظـةٌ هـجـرتْـنـا
و"المـــيـــامـــينُ" غُـــرُّهُـــم أغـــرارُ

وشـــتـــاتٌ مـــا بـــينَ رومٍ وفُـــرسٍ
ومـــغـــولٌ تمـــضـــي ويـــأتـــي تـــتـــارُ

وطقوسُ البُهتانِ عيدٌ سعيدٌ

وصلاةُ الوجدانِ خزيٌ وعارُ

لا تُمثِّل. تحتَ المنصَّةِ لَغْمٌ

وعليها لغمٌ. وفيكَ انفجارُ

تُرهقُ الريحُ بالهبوبِ جناحاً

فلتؤمِّلْ ركودَها الأطيارُ

وإذا هوَّمَ النَّدامى سُكارى

ليسَ فرضاً أن يسكَرَ الخمّارُ

لا تُمثِّلْ يا صاحبي. بعدَ صَوْمٍ

يتسنّى لصبرِكَ الإفطارُ

هُـــوَ ومــضٌ مـــن بَـــرْقـــةٍ. فـــقـــلاعٌ

تـــتـــهـــاوى. وتـــنـــحـــنـــي أَســـوارُ

ونـــزيـــفٌ مـــن آخـــر الـــقـــلـــبِ. نـــهْـــرٌ

ضـــفَّـــتـــاهُ هـــزيـــمـــةٌ وانـــتـــصـــارُ

فـانـتـصِـبْ! وانـتـسِـبْ! وَبُـحْ: أنـا مِـمَّـنْ

وَقَـــفَ الـــكـــونُ ذاهـــلاً يـــومَ ســـاروا!

إنَّ عَيْشَ الأَجسامِ عارٌ إذا الأجسامُ (م)

عـــاشـــتْ.. ومـــاتـــت الأَفـــكـــارُ!

وإذا عَـــزَّ ظِـــلُّـــهـــا وَجَـــنـــاهـــا

وَجَـــداهـــا.. مـــا نـــفْـــعُـــهـــا الأَشـــجـــارُ؟

يا أخا العُرْبِ. حاذِرِ الدورَ. حاذِرْ
ما تَفُحُّ الأقلامُ والأوتارُ

حاذِرِ الدورَ. يا أخا العُرْبِ. فيهِ
يتساوى الأخيارُ والأشرارُ

حَبَكَتْهُ أيدي الخفاءِ قناعاً
خَلْفَهُ العارُ كامِنٌ والشَّنارُ

يا صديقي. ولا يَغُرَّنَّ حَشْدٌ
ألملايينُ جُلُّها أصفارُ

مُفردٌ أنتَ في الصِّراعِ وحيدٌ
والضَّلالاتُ جيشُها جَرَّارُ

فاسبُر النصَّ لفظةً تلو أُخرى

وتريَّثْ ليستقيمَ المسارُ

ضاقت الأرضُ يا رفيقي بما تنزفُ (م)

جَهْراً وأَعْسَرَ الإصرارُ

هكذا نحنُ. هكذا أنتَ. فاضرِبْ

بعصا السِّحْرِ. ولْتُشَقَّ الغِمارُ

آنَ للكَشْفِ أن يبوحَ بما يُضمِرُ (م)

غيْبٌ وتحجُبُ الأستارُ!

يا صديقي، في النَّصِّ بُستانُ لوزٍ

ونخيلٍ، وموسمٌ، وثمارُ

صَفحاتُ المؤلِّفينَ قطوفٌ

دانياتٌ. من تحتها أنهارُ

كُلُّ شيءٍ كما يُرام لديهم

جنةٌ نحنُ أهلُها الأبرارُ

أيُّهذا الممثِّلُ الفذُّ فالعبْ

كيفما شئتَ.. ليسَ إلا قفارُ!

كَذَبَ النصُّ. لا هنا الأهلُ أهلٌ

لا. ولا الدارُ يا صديقيَ دارُ

يخذلُ الطفلُ أُمَّهُ وأباهُ

وعلى جارهِ يجورُ الجارُ

لـلـحـوارِ الـرقـيـقِ وقـعُ صُـداعٍ

وذُوارٌ رَجْـعُ الـنـقـيـقِ. دُوارُ

هـكـذا نـحـنُ. يـا لـهـاةَ المـآسـي

يُـزعـجُ المـوتَ مـوتُـنـا المِـهْـذارُ

لا نُـمـثِّـلْ. ولا نُـمـثِّـلْ. عـبـيـدٌ

نـحـنُ.. والـوهـمُ أنّـنـا أحـرارُ!

صَلَبَ الكاتبُ الحقيقةَ، واغتالَ (م)

الحـروفَ الـرقـيـبُ.. والمـنـشـارُ!

والمـرايـا تـقـولُ مـنَّـا وجـوهـاً

لا كـلامـاً لـه الـوجـوهُ الـكِـثـارُ

والمرايا تَجُبُّ وجهاً قديماً

حَزَّ فيهِ الترْدادُ والتكرارُ

طوَّحتهُ الرياحُ براً وبحراً

واستباحتْ نِثارَهُ الأهوارُ

هَبَّ أهلُ الكهفِ القدامى. ونمنا

ونَلَهّى بذكرنا السُّمّارُ

أمسِ كانوا.. وأمسِ كانوا. وكانوا

وَمَلِلْنا. وَمَلَّنا استذكارُ

وطناً صارَ كَهفُنا. صار كهفاً

وطنٌ كيفَ جئتَهُ. فحصارُ

يـزحـفُ الـرمـلُ فـوقَـهُ. والأنـاشـيـدُ (م)

نمــــاءٌ. وخـــــضـــــرةٌ. وازدهـــــارُ!

خَــدَعَ الــنــصُّ روحَـــهُ. وأُهــيــنَــتْ

لَـــــهَـــــفــــاتٌ. وزُوِّرتْ أوطـــــارُ

والإراداتُ طُــــرفـــــةٌ. وافـــتـــــراضٌ

عَــبَــثــيٌّ. ولــلـــرؤى مـــنـــظـــارُ!

ومــعــانــي الــقــامــوسِ غــيــرُ المــعــانــي

وحـــدودُ الــنـــامــوسِ ثـــوبٌ يُــعـــارُ

ومُـــعـــارٌ زمـــانُـــنـــا مـــن زمـــانٍ

مُــســتــعـــارٍ. زمــانُـــهُ مُــســتَــعــارُ

نحن في حضرةِ الحياةِ عُراةٌ

وَعَلَيْنا من خِزْينا أطمارُ

كرمُنا سابَ. والنواطيرُ نامتْ

فإذا المصرُ دونَنا أمصارُ

وإذا لحمُنا متاعُ الضواري

ناوَشَتْهُ الأنيابُ والأظفارُ!

ما الذي ظلَّ من حسابِ القرايا

والسَّرايا كما ترى أطوارُ

وصروف الزمانِ مدٌّ وجَزْرٌ

وَمَهاوٍ ما قرَّ منها قرارُ

ولنسلِ الطُّغاةِ نسلُ طُغاةٍ

والمرابي في صُلبِهِ سمسارُ

وإذا مالت الرقابُ عياءً

شَحَذَ النَّصلَ فوقها جَزّارُ

فاحفظ الدورَ يا صديقيَ واحفظْ

حكمةَ الدَّورِ أيُّها البحّارُ

ماهرٌ أنتَ في السِّباحةِ لكنْ

ماهرٌ ضدَّ حُلْمِكَ التيّارُ

لا تمثّلْ. خبزُ المسارِحِ مُرٌّ

والحلاواتُ دونَها أقدارُ

لا تُمثِّلْ. كفافُ يومِكَ دارٍ

أنَّ طَعْمَ الإبداعِ ما تشتارُ

وضجيجُ الأخبارِ للبَغْي لكنْ

خبرَةُ الحقِّ ما لها أخبارُ

عَلَّمَتْكَ الأيامُ درساً فدرساً

فإذا الشاسعُ المدى أشبارُ

يا صديقي. وحكمةُ اللهِ عُمْرٌ

لا شيوخٌ تحكي ولا أحبارٌ!

كنتَ مَن كنتَ. قيصراً وابنَ رُشْدٍ

والنَّجاشيَّ. كنتَ أنتَ فصاروا

جُسْتَ سرَّ الأسرارِ. عايشتَ بوذا

وابنَ سينا ودارَ فيكَ المدارُ

جُنَّ تمّوزُ في جنونِكَ حُبّاً

يا صديقي. وخادَعَتْ عشتارُ

كنتَ جلجامشَ التعيسَ وإنكيدو (م)

وباحَتْ بسرِّكَ الآبارُ

كنتَ أيّوبَ محنةٍ بَهَظَتْها

محنةُ الصمتِ والأسى هدّارُ

يا فنارَ الأيامِ غرقايَ كُثْرٌ

فأغثني ببعضِهِم يا فنارُ

مَنْ ملوكُ الشطآنِ. أهِيَ الصحارى

روحُ روحي. أمِ الملوكُ البِحارُ؟

وَقيافي الرحيلِ تطوي خَبالي

وابتهالي: قَلْتَنْجُ لي آثارُ!

غارقٌ في الرمالِ. والبحرُ ساجٍ

وقلوعي يشطُّ عنها المزارُ

عازفٌ مرهقٌ وَعُودٌ هشيمٌ

وأغانٍ يغتالُها القيثارُ

غَرَّمَتْها أصائلُ الموتِ يُتماً

وأناختْ بثُكْلِها الأسحارُ

أيـن؟ يـا أيـنَ، يـسـتـقـيـمُ صـراطـي؟

كـيـفَ؟ يـا كـيـفَ، يُـقـبِـلُ الإدبـارُ

آدمـــيٌّ هـــذا الـمـمـثِّـلُ. لا نـصـفُ (م)

إلـــــهٍ، ومـــــاردٌ جـــــبَّـــــارُ

آدمـــيٌّ. طـيـنٌ عـلـى الـنـارِ. فـامـثُـلْ

لاقـتـحـامِ الـصَّـوَّانِ يـا فـخَّـارُ!

أنـتَ مَـثَّـلْـتَ. لـم تُـمَـثِّـلْ. تـقـمَّـصْـتَ (م)

الـخـفـايـا، فـأسـفـرتْ أغـوارُ

يـا صـديـقـي غـامـرتَ فـي ألـفِ فـجٍّ

واسـتـزادتْ أسـفـارَكَ الأسـفـارُ

جُبْتَ أَقْصى الرؤيا بأدنى المرايا

وتشظَّيْتَ. فالفضاءُ انبهارُ

حيثُ تخطو على المجرّاتِ نَجْماً

يتغاوى ليلٌ ويُغوي نهارُ

يا صديقي. ووحدكَ الآنَ تذوي

ويُذرِّي خريفَكَ الإعصارُ

وحدكَ الآنَ. لاشتباهِ المعاني

ولحُكْمِ الإدراكِ ما يختارُ

ألبُطولاتُ دَوْرُها ليس يُشفي

والهيولى حدودُها أعمارُ

وَحْــــدَكَ الآنَ. وَحْــــدَكَ الآنَ. عُـــمْـــرٌ

يــتــهــاوى.. وَمَــسْــرَحٌ يــنــهــارُ!!
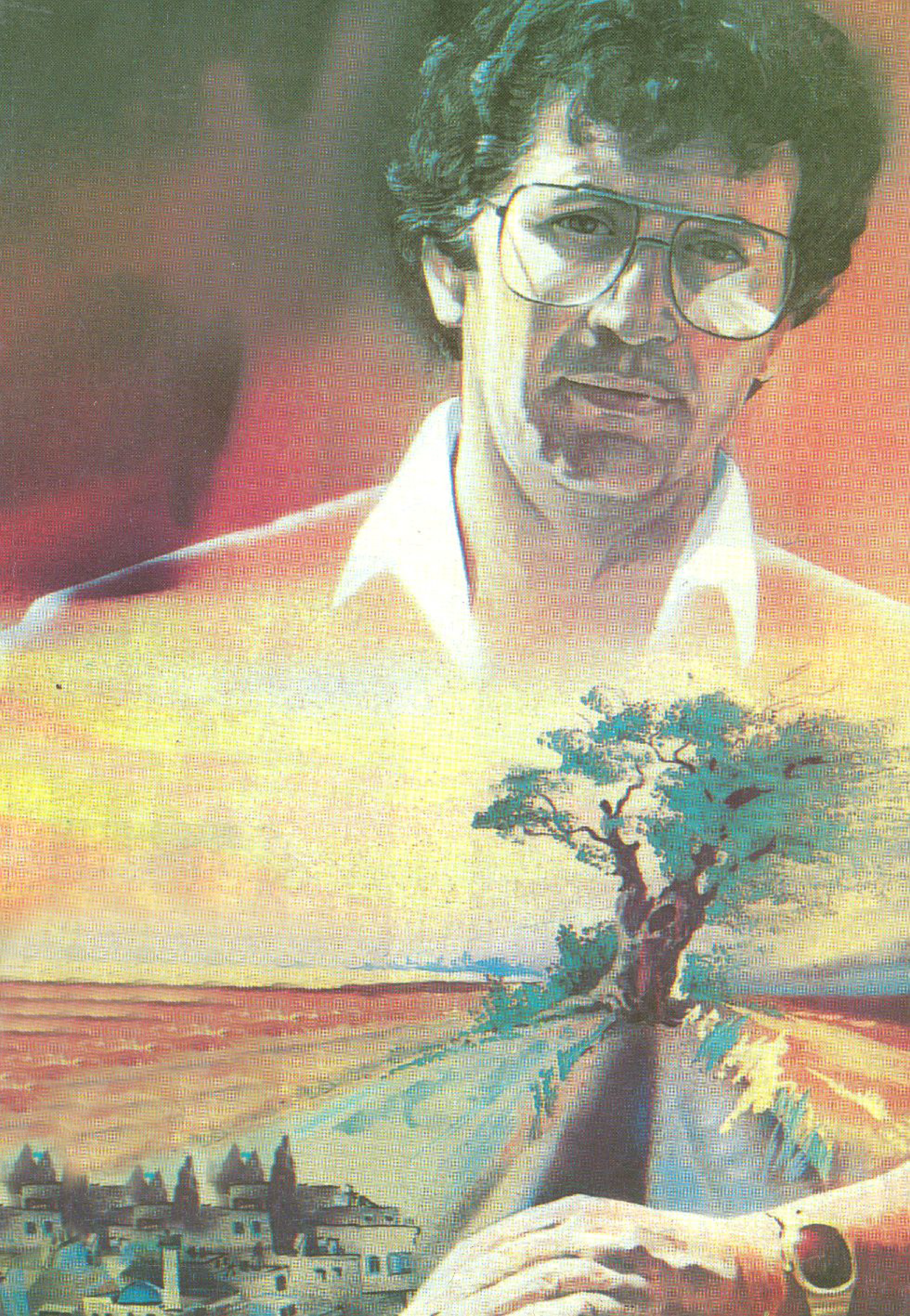
(حزيران ١٩٩٩)